سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

[دفاتر تفكيك خطاب التطرف]

11

المقاصد الكلية للدين الإسلامي وأهميتها في مواجهة ظاهرة التطرف

د. مولاي المصطفى الهند

المملكة المغربية

الرابطة المحمدية للعلماء

المقاصد الكلية للدين الإسلامي
وأهميتها في مواجهة
ظاهرة التطرف

سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

- دفاتر تفكيك خطاب التطرف -

المشرف العام: أ. د. أحمد عبادي / رئيس التحرير: د. محمد المنتار

الإخراج الفني: يونس عبدوس

الطبع: مطبعة المعارف الجديدة. الرباط / الطبعة الأولى: (1440هـ/2018م)

الإيداع القانوني: 2018MO5751 / **ردمك:** 978-9954-600-84-9

كل الحقوق محفوظة

Tous droits réservés

المملكة المغربية

الرابطة المحمدية للعلماء

www.arrabita.ma

يحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو اختصار أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

تطلب منشوراتنا من:

• وحدة النشر والتوزيع وتنظيم المعارض

الرابطة المحمدية للعلماء، شارع لعلو، لوداية الرباط.

الهاتف والفاكس: 0537.70.15.85

البريد الإلكتروني: manchoratarrabita@gmail.com

• المعرض الدائم لإصدارات الرابطة المحمدية للعلماء

شارع فيكتور هيكو رقم 53 مكرر، الأحباس، الدار البيضاء.

الهاتف: 0522.44.86.57 الفاكس: 22.54.20.51 5 (212+)

البريد الإلكتروني: manchoratarrabita@gmail.com

• دار الأمان للنشر والتوزيع. الرباط

البريد الإلكتروني: Derelamane@menara.ma

هاتف وفاكس: 37.20.00.55 5 37.72.32.76/ 5 (212+)

سلسلة الإسلام والسياق المعاصر

[دفاتر تفكيك خطاب التطرف]

11

المقاصد الكلية للدين الإسلامي وأهميتها في مواجهة ظاهرة التطرف

د. مولاي المصطفى الهند

مقدمة:

إذا كانت الكليات التشريعية والعقدية والعقلية التي عرفها تاريخ الفكر الإسلامي ذات بعد علمي وأكاديمي صرف، فإن الكليات الدينية هي الخيط الناظم الجامع لما تفرق في غيرها من قواعد رفيعة ومقاصد سنيّة غَيَّت للمسلمين حفظ الدين والتدين من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ولاستيعاب البعد الفلسفي الذي يصدرعنه التصور الإسلامي بشكل عام ويمتح منه، فإنه يجوز الحديث في الكليات الثلاث عن ثنائية الأصول والفروع أو الكليات والجزئيات، ولكن الكليات الدينية لا تتحمل التقابلات، إذ هي وحدة بنائية مستوعبة لجوهر الدين وروحه وحقيقته العليا.

ومن هنا يمكن القول بأن غاية ما تهدف إليه الكليات الثلات هو تأسيس معايير علمية دقيقة ومنضبطة يُحتَكم إليها حين الخلاف في القضايا العلمية، أما الكليات الدينية فهي المنهج العام الهادي للتي هي أقوم حين الزلل والخلل في فهم الدين وما يترتب عنه حين التطبيق والتنزيل من مساوئ وقتية جمّة اكتوى بنارها الكثير من العباد والبلاد.

وإن شئنا قلنا بصيغة أخرى: إن الكليات الدينية الإسلامية هي النموذج المرجعي الذي يُقوَّم على أساسه كل انفلات من شِكَال التديّن الحنيف أو احروراف عن هديه المنيف. وهي بذلك

وقاية وصيانة للفرد وللمجتمع من الزيغ والضلال، إذ بها تُستفاد النّعم وتُباد النّقم.

ويأتي هذا الدفتر المبارك ليسلط مزيدا من الضوء على جملة من هذه الكليات، لإبراز مقاصدها ومدى أهميتها في محاربة ظاهرة التطرف الديني في واقعنا المعاصر، وذلك من خلال سبعة مباحث رئيسة:

المبحث الأول. كلية التزكية والسلوك:

مما لاشك فيه أن عصب قوام الأمة وقيامها التزكية والسلوك، فهي بهذا كلية دينية جامعة لما تفرق في غيرها. بل إنها تكاد تحصر مهمة ورسالة رسولنا الكريم عليه الصلاة السلام في إتمام بنيان هذا الصرح القيمي العظيم، وذلك واضح تمام الوضوح من خلال الحديث النبوي الشريف: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، وفي رواية أخرى: «إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال».[1]

وتزداد الحاجة إلى هذه الكلية كلما ابتليت الأمة بابتلاءات داخلية تكاد توهن من قوتها وتفت في عضدها، شأن التطرف الديني: فكرا وسلوكا وخطابا.

ومن المعلوم أن الأصل في مهمة الرسل - بعد التبليغ - التعليم قبل التزكية، كما ورد ذلك بوضوح في دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:129].

وإذا ما وقع أي انحراف عن مقاصد هذه الدعوة الحنفية، بعد ابتعاث الرسل والأنبياء ومجيء الآيات وأخذ حظ من العلم، فيتم حينها تقديم التزكية على التعليم لمعالجة ذلكم الخلل السلوكي، وبيان هذا وارد في قوله عزوجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : 164].

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين. القاهرة. طبعة 1415هـ، 74/7.

وقد ذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور في معرض تفسيره لهذه الآية أنها «استئناف لتذكير رجال يوم أحد وغيرهم من المؤمنين بنعمة الله عليهم. ومناسبة ذكره هنا أن فيه من التسلية على مصيبة الهزيمة حظا عظيما، إذ قد شاع تصبير المحزون وتعزيته بتذكيره ما هو فيه من النعم، وله مزيد ارتباط بقوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾، وكذلك جاءت آي هذا الغرض في قصة أحد ناشئا بعضها عن بعض، متفننة في مواقعها بحسب ما سمحت به فرص الفراغ من غرض والشروع في غيره، فما تجد طرّاد الكلام يغدو طلقا في حلبة الاستطراد إلا وتجد له رواحا إلى مُنبعثه».[1]

ولا يخفى ما وقع فيه بعض أبناء المسلمين من نكوص سلوكي يتنافى مع التوجيهات النبوية يومها، ولهذا تم تقديم التزكية في هذه الآية على التعليم لاقتضاء مقام المعاتبة على الإقبال على الغنيمة، كما ذكر الإمام البقاعي في مناسباته.[2]

وإن حال أمتنا اليوم يشكو الهزيمة في أُحُد السلوك، ويعاني الأمرّين في أُحُد التزكية، ويكابد الممانعة في أُحُد القيم والأخلاق، وما كان كل هذا ليقع لولا التنطع والغلو والمروق..!

ولهذا فإنه لا سبيل إلى معالجة هذه المساوئ الوقتية إلا بالرجوع إلى كلية التزكية والسلوك، والتوسل في ذلك بالأنموذج العملي والمثال التطبيقي الذي قال فيه رب العزة والجلال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:4].

---

(1) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير أو «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر. تونس، طبعة 1984م، 4 /158.

(2) أُنظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية. بيروت، طبعة 1418هـ. 1995م، 178/2.

والجدير ذكره في هذا الصدد أن أخلاقه ﷺ السامية في بساطتها النظرية يصعب تنزيلها بشكل عملي في واقع متطرف لا يستطيع فهم أو تذوق جمالية الرسالة النبوية الرفيعة في شكلها التكاملي، ويكفي المرء أن يلقي نظرة على كتب السيرة النبوية ليرى العجب العجاب !

فمن ذلك ما أورده الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه الماتع «زاد المعاد»، الذي سكب فيه رحيقا من ندى هدي النبي الكريم، فقد ذكر فيه كيف كان هدي الرسول عليه الصلاة والسلام في طعامه: «لا يرد موجودا، ولا يتكلف مفقودا، فما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم. وما عاب ﷺ طعاما قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه (...) ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه، بل كان هديه أكلَ ما تيسر، فإن أعوزه، صَبَرَ حتى إنه ليربِطُ على بطنه الحجر من الجوع، ويُرى الهلالُ والهلالُ والهلالُ ولا يوقد في بيته نار».[3]

أما هديه في معاشرته أهله فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا هويت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها شيئا لا محذور فيه تابعها عليه، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه الشريف في موضع فمها وشرب، وكان إذا تعرقت عرقا، وهو العظم الذي عليه لحم، أخذه فوضع فمه في موضع فمها. ثم كان من حسن خلقه مع أهله أنه كان يمكن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من اللعب، ويريها الحبشة وهم يلعبون في مسجده وهي متكئة على منكبيه تنظر، وسابقها في السفر على الأقدام مرتين، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرة..[4]

(3) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية. بيروت، 101/1 - 102.

(4) أُنظر تفاصيل هذا الهدي النبوي في زاد المعاد لابن قيم الجوزية، 1/ 104. 105

لا أخال أن صدور بعض المتطرفين ممن يدعي الإلتزام بهدي النبي عليه الصلاة والسلام تتسع لبعض ما ذكره الإمام ابن قيم في زاده. ولو حاول أحدهم أن يتمثل هذه القيم الحضارية الرفيعة لما استطاع إلى ذلك سبيلا، وما ذلك إلا نظرا لغياب الوعي الموضوعي، وتضاؤل النظرة الكلية، وبهت الحس التكاملي، وضعف الفقه المقاصدي للسيرة النبوية العطرة في بعدها الأخلاقي بشكل عام.

فلا غرو إذن أن نرى أنموذجا من هؤلاء وقد وقع تحت تأثير التشدد والغلو في سلوكه حتى أصبحتا صفتين من سنته وسيرته وهديه، فلا تجده في قوله أو فعله إلا فظا غليظا، وقد غلبت عليه السماجة والحزونة والخشونة، وغابت عنه صفات الحسن والإشراق والنضارة.. ألا فما أشقى الأمة به وبأمثاله..!

المبحث الثاني. كلية الإفتاء والاستفتاء:

ترتبط كلية الإفتاء والإستفتاء في ديننا الحنيف بقيمة العلم ومركزيته التي تأبى الإنحسار في التأسيس والتأصيل، بل توسع دائرتها بشكل متجدد لتواكب سياق الحال والمقام في الأمة، وذلك عبر اجتهاد مستأنف يحقق واجب الإستخلاف والتعمير.

ويشهد واقعنا المعاصر أن حس هذه الكلية الدينية أضحى باهت الصورة ومشوش الفكرة ومعتم الرؤية، خاصة حين يتعلق الأمر بطرق التوسل الخاطئة التي تنهجها فئة من أهل الضلال حين محاولتها الإجابة عن بعض الأسئلة والأقضية والنوازل، فنتج عن ذلك فكر «يؤصل» و «يشرع» و«يشرعن» لاجتهادات وسلوكات مفتئتة مفتريات، وهو ما يعرف اليوم بـ«تطرف الفتاوى» أو «فتاوى التطرف» !

ومن هنا وجب التنبيه في هذا السياق أن ممارسة الإجتهاد في التعامل مع معارف الوحي ومصادره استقراءً واستيعابا واستنباطا يحتاج إلى رسوخ قوي في العلم، ومنزلة عليا في الفهم، وبصيرة نافذة في الرأي والعزم، وخلق رفيع في التروي والحلم. ولهذا كانت مكانة المجتهد في الإسلام من أعلى المقامات وأسمى الدرجات، حتى إن الإسلام قرَن مداد الفقهاء المجتهدين بمداد الشهداء المخلصين كما هو واضح في قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:122].

وقد اقترن تعريف مفهوم الإجتهاد في أدبيات الفقه الإسلامي ببذل الوسع واستفراغ الجهد والطاقة في تحصيل حكم شرعي. ويكاد يشترك

العلماء في هذه الدلالة الاِصطلاحية، شأن ما نجده في «المحصول» للرازي، و«الفصول» للجصاص، و«المستصفى» للغزالي، و«الإحكام» للآمدي، و«اللمع» للشيرازي، و«التقرير والتحبير» لابن أمير الحاج، وفي تعريفات غيرهم من فطاحل الأمة.

والجدير ذكره أن هذا الاِجتهاد المشروط ببذل الوسع والجهد خاص بهؤلاء الأعلام وأمثالهم من فقهاء الأمة وليس بغيرهم، إذ إن تحصيل شيء من العلم الشرعي يأتي بعد استفراغ هؤلاء الأفذاذ طاقتهم المعرفية واستنفاذ جهدهم العلمي. ومن هنا يفهم بأن تعريفهم لمفهوم الاِجتهاد تنظيرًا وتنزيلاً محصور فيهم وفي أضرابهم من القمم الشماء الراسخة في العلم؛ لأنه في حقيقته أمر عسير، على من دونهم غير يسير، ذلك أن أهله ينوبون في التوقيع عن رب العالمين، ولهذا قال الإمام ابن القيم فيما يشترط في من يوقع عن الله ورسوله: «ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ والصدق فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق؛ فيكون عالما بما يبلغ صادقا فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضي السيرة، عدلا في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله. وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات؟ فحقيق بمن أُقِيم في هذا المنصب أن يعد له عدته، وأن يتأهب له أهبته، وأن يعلم قدر المقام الذي أُقِيم فيه. ولا يكون في صدره حرجٌ من قولِ الحقِّ والصَّدْعِ بِه، فإِن اللّه ناصرُه وهادِيه».[1]

(1) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.2، 1397هـ. 1977م، 1/8 - 9.

وتعتبر قضية الفتاوى من أهم ما أفرزته عملية الاِجتهاد في تاريخ الفكر الإسلامي. ونظرا لخطورة الاِشتغال بها، فقد احتل التنبيه والتحذير منها في أقوال علماء السلف حيزا مهما في كتبهم ومؤلفاتهم، من ذلك قول الإمام النووي: «اِعلم أن الإفتاء عظيم الخطر، كبير الموقع، كثير الفضل، لأن المفتي وارث الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- وقائم بفرض الكفاية ولكنه معرض للخطأ؛ ولهذا قالوا: المفتي موقع عن الله تعالى. ورُوِّينا عن ابن المنكدِر قال: العالم بين الله تعالى وخلقه، فلينظر كيف يدخل بينهم. ورُوِّينا عن السلف وفضلاء الخلف من التوقف عن الفتيا أشياء كثيرة معروفة نذكر منها أحرفا تبركا. ورُوِّينا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول. وفي رواية: ما منهم من يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا».[2]

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل شفّع الإمام النووي هذا الكلام كله بصفات ضرورية لكل من يرشح نفسه لهذه المهمة الصعبة، من ذلك كونه «مكلفا مسلما وثقة مأمونا متنزها عن أسباب الفسق وخوارم المروءة، فقيه النفس، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح التصرف والاِستنباط، متيقظا سواء فيه الحر والعبد والمرأة والأعمى، والأخرس إذا كتب أو فهمت إشارته. قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح: «وينبغي أن

(2) مقدمة كتاب: آداب الفتوى والمفتي والمستفتي آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، الإمام النووي، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار الفكر. دمشق، ط.1، 1408هـ. 1988م، ص: 13. 14.

يكون كالراوي في أنه لا يؤثر فيه قرابة وعداوة، وجر نفع ودفع ضر، لأن المفتي في حكم مخبر عن الشرع بما لا اختصاص له بشخص».[1]

وقد كان من تبعات هذا الكلام الذهبي أن أنشأت مبكرا مجامع للاِجتهاد والفتوى الجماعية، شأن ذلك ما فعله الخليفة عمر بن عبد العزيز حينما ولي إمارة المدينة، فقد كان يجمع علماء الأمة كي يستعين بهم في الأحكام، ويتخذهم له أعوانا على الحق، حتى إنه كان لا يقطع أمرا إلا برأيهم أو برأي من حضر منهم.[2]

ويشهد تاريخ الإسلام أن علماء السلف كانوا ينظرون فيما يعرض عليهم من النوازل والوقائع في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن لم يجدوا فيها شفاء اشتوروا واجتهدوا[3]، ثم جدوا في طلب الرحلة في مسألة واحدة[4]، وليس عجيبا إذن أن يترجم الإمام البخاري لباب تحت عنوان: باب الرحلة في المسألة النازلة، وتعليم أهله.[5]

(1) مقدمة كتاب: آداب الفتوى والمفتي والمستفتي آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، الإمام النووي، ص: 19.

(2) أُنظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط.3، 1405هـ.1985م، 118/5.

(3) أُنظر: غياث الأمم في التياث الظلم، الإمام الجويني، تحقيق: عبد العظيم الديب، مطبوعات وزارة الأوقاف بقطر، ط.1، 1400هـ، ص:431.

(4) أُنظر: الفقيه والمتفقه، الإمام البغدادي، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي. الدمام، ط.1، 1417هـ، 375/2. 376.

(5) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: الرحلة في المسألة النازلة وتعليم أهله، 29/1. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة. بيروت، ط.1، 1422هـ

إلا أن هذه السنة الحميدة في الإجتماع على الفتوى والاجتهاد أفَلَت مع أفول نجم الأمة الإسلامية من سماء العلم والمعرفة والشهادة على الناس، فخلف من بعد ذلكم السلف الصالح خلف ممن يحسب نفسه من «أهل العلم» طالبا أو مطلوبا، ينفرد باجتهادات عجيبة وغريبة في غاية الفداحة والخطورة، حيث إن جزاءها وآثارها لا يقف عند حدود المجتهد والمفتي والمستفتي فقط، وإنما تبنى عليه مواقف وسلوكات تصبح مع مرور الزمن جزءًا من ثقافة المجتمع برمته، ولا يعلم عواقبها الوخيمة إلا الله جلّ في علاه.

إن الذي يقرأ ما سبق ذكره من مثل النصوص السابقة وغيرها قراءة واعية يدرك مخاطر الفتاوى التي ينتجها الإجتهاد، خاصة الفردي منه، ويدرك تمام الإدراك ما يمكن أن يقع فيه «المفتي» من مغالطات معرفية قد تؤثر ولا شك بشكل سلبي على الأفراد والمجتمعات.

ومن هنا وجب تنبيه شباب الأمة المستفتي أن زمن المفتي الفرد قد ولّى إلى غير رجعة، وإن ما يعرفه عصرنا من تحولات سريعة وعميقة ومعقدة في شتى المجالات يستوجب النظر الجماعي في الجواب الشرعي عن كل ما يُطرح من أسئلة وإشكالات. وعليه وجب التأكيد أن الإجتهاد الجماعي في عصرنا الحالي أصبح ضرورة قصوى ومقصدا جليلا، وإن الأمة الإسلامية في حاجة ماسة إلى توحيد الرؤى والجهود لتجاوز كثرة المشكلات والعقبات التي تعترض سبيلها.

إن الإجتهاد الفردي - في أحسن صوره ومستوياه - عاجز عن التعبير عن حقيقة كلية الإفتاء والإستفتاء في التصور الإسلامي، وأضحى الإجتهاد

الجماعي والمؤسساتي الأجدر بالاهتمام والبحث والتطبيق، والأليق بطبيعة العصر وظروفه، والمجال الخصب للممارسات التعليمية الجماعية، والأنسب لتعاليم الشريعة الإسلامية ومقاصدها، والباعث للحركة والفعالية في جسم الفكر الإسلامي المعاصر استخلافا وتعميرا.

وإذا أردنا الإختصار قلنا: إن الإجتهاد الجماعي الأكاديمي المنظم والمؤطر في الإفتاء والإستفتاء واجب الوقت، وهو الذي من شأنه صيانة الأمة وحفظها من «تطرف الفتوى» و«فتوى التطرف».

المبحث الثالث. كلية الاِختلاف والاِئتلاف:

لعل أحد أوجه التطرف خطورة في واقعنا الإسلامي الحالي هو إشكال «الإجماعات» و«الترجيحات» و«القطوعات» و«المانعات» التي تنسب إلى علماء الأمة ظلما وزورا وبهتانا، وغالبا ما تتبناه عقلية أحادية ضيقة لا تؤمن بالاِختلاف التنوعي المحمود والمطلوب في علومنا الإسلامية كما هو معروف ومعلوم.

أما أدب الاِختلاف في الإسلام فحدث ولا حرج !! وهذا ما يسجل لدى الفكر المتعنت من إعلاء لصوت الخلاف على خلق الاِئتلاف، خاصة عندما يتعلق الأمر بالقضايا الاِجتهادية التي لا يجوز فيها إجبار الطرف المخالف على قبول الرأي أو حمله عليه أو الإنكار عليه.

وإن مما يُؤسَف له أننا ابتُلِينا في زماننا هذا ببعض من يرى الصحيح في الأقوال قوله، والراجح في الآراء رأيه، والصائب في الاِجتهاد اجتهاده، والسديد في المذهب مذهبه، والأسلم في العقدية عقيدته.. ولولا الباقية من حياء الفطرة لقال في كل صغيرة وكبيرة: ما أريكم إلا ما أرى!!

ولأن عقول هذه الطينة من الناس لا تستوعب التعدد والكثرة والتنوع في الاِجتهادات العلمية، فهي لاحَظَّ لها في فقه وثقافة الجموع، بحيث لا تقبل بأي شكل من الأشكال مختلف الآراء والأفكار والأقوال.

ومما يُحمد لعلماء الأمة أَنهم انتبهوا إلى هذا الأمر الجلل في وقت مبكر من تاريخ الأمة، فعالجوه بمنهجية علمية محكمة، شأن ما قام به الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (ت911هـ) في رسالته الماتعة «جزيل

المواهب في اختلاف المذاهب»،حيث عقد فيها فصلا قال فيه: «اِعلم أن اختلاف المذاهب في هذه الملة نعمة كبيرة، وفضيلة عظيمة، وله سر لطيف أدركه العالمون، وعمي عنه الجاهلون، حتى سمعت بعض الجُهَّال يقول: النبي ﷺ جاء بشرع واحد، فمن أين مذاهب أربعة؟».[1]

إن هذا الإشكال المعرفي الذي عالجه الإمام السيوطي في وقته وزمانه هو نفسه الذي يُطرح للنقاش بحدة في عصرنا الحالي بين الفينة والأخرى في مجامع وملتقيات شتى، ولهذا أبدى عجبه ممن «يأخذ في تفصيل بعض المذاهب على بعض تفصيلا يؤدي إلى تنقيص المُفَضَّل عليه وسقوطه، وربما أدى إلى الخصام بين السفهاء، وصارت عصبية وحمية جاهلية، والعلماء منزهون عن ذلك...».[2]

وهكذا أجاب -رحمه الله- عن ذلكم السؤال الذي سمعه في زمانه، والذي يتردد صداه بقوة في زماننا قائلا: «إن اِختلاف المذاهب في هذه الأمة خصيصة فاضلة لهذه الأمة، وتوسيع في هذه الشريعة السمحة السهلة، فكانت الأنبياء قبل النبي ﷺ يبعث أحدهم بشرع واحد وحكم واحد، حتى إنه من ضيق شريعتهم لم يكن فيها تخيير في كثير من الفروع التي شرع فيها التخيير في شريعتنا؛ كتحريم القصاص في شريعة اليهود، وتحتم الدية في شريعة النصارى .

ومن ضيقها أيضاً: لم يجتمع فيها الناسخ والمنسوخ كما وقع في شريعتنا، ولذا أنكر اليهود النسخ، واستعظموا نسخ القبلة.

(1) الإمام السيوطي، جزيل المواهب في اختلاف المذاهب، ص:27. 29.

(2) المرجع السابق، ص:25.

ومن ضيقها أيضاً: أن كتابهم لم يكن يقرأ إلا على حرف واحد كما ورد بكل ذلك الأحاديث.

وهذه الشريعة سمحة سهلة لا حرج فيها، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ الله بِكُم اليُسْرَ﴾، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وقال ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة».

فمن سعتها: أن كتابها نزل على سبعة أحرف، يقرأ بأوجه، والكل كلام الله. ووقع فيها الناسخ والمنسوخ ليعمل بهما معاً في هذه الملة. في الجملة فكأنه عمل فيها بالشرعين جميعا. ووقع فيها التخيير بين أمرين، شرع كل منهما في ملة، كالقصاص والدية، فكأنها جمعت الشريعتين معاً، وزادت حسناً بشرع ثالث، وهو التخيير الذي لم يكن في أحد الشريعتين .ومن ذلك: مشروعية الاِختلاف بينهم في الفروع.

فكانت المذاهب على اختلافها كشرائع متعددة، كل مأمور بها في هذه الشريعة، فصارت هذه الشريعة كأنها عدة شرائع بعث النبي ﷺ بجميعها.

وفي ذلك توسعة زائدة لها، وفخامة عظيمة لقدر النبي ﷺ، وخصوصية له على سائر الأنبياء، حيث بعث كل منهم بحكم واحد، وبعث هو ﷺ في الأمر الواحد بأحكام متنوعة، يحكم بكل منها وينفّذ ويصوب قائله، ويؤجر عليه، ويهدي به. وهذا معنى لطيف فتح الله به، يستحسنه كل من له ذوق وإدراك لأسرار الشريعة».[3]

(3) الإمام السيوطي، جزيل المواهب في اختلاف المذاهب، ص: 27 - 29.

إن ما ذكره الإمام السيوطي يمتح مما هو متعارف عند علماء الأمة ومن المعلوم في الدين الإسلامي بالضرورة في أدبيات الإجتهادات والحوارات العلمية. فقد ذكر الإمام القاضي عياض أن الإمام الليث قال: «لقيت مالكا بالمدينة فقلت له: إني أراك تمسح العرق عن جبينك. قال: عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري. ثم لقيت أبا حنيفة فقلت: ما أحسن قول ذلك الرجل فيك! فقال: والله ما رأيت أسرع منه بجواب صادق وزهد تام».[1]

وقال الإمام الشافعي في معرض تعليقه على زيارة الإمام الأحمد:

قـالـوا يزورك أحمـد وتزوره قلت الفضـائل لا تفارق منزلـه

إن زارنـي فبفضلـه أوزرتـه فلفضلـه فالفضل في الحالين له

فأجابه الإمام أحمد:

إن زرتنـا فبفضل منك تمنحنا أونحن زرنا فللفضل الذي فيكا

فلا عدمنا كلا الحالين منك ولا نال الذي يتمـنى فيك شانيكا[2]

لا يتعلق الأمر في تقديري بأدب الإختلاف، فهو أشهر من نار على علم، فكل واحد من هؤلاء الذين يضيق صدرهم من الرأي المخالف يستطيع أن يحاضر ويلقي دروسا ممتعة في أدب الإختلاف، لكن الأمر هنا يرتبط

(1) القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، الجزء الأول من تحقيق ابن تاويت الطنجي، مطبعة فضالة. المحمدية، طبعة سنة 1965م، 152/1.

(2) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: 219/1 - 220. الإمام السفاريني، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، ضبط وتصحيح: الشيخ محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية. بيروت، طبعة 1417هـ. 1996م، 219/1. 220.

باختلاف الأدب بينما هو مسطور في الكتب والأسفار، وبين ما يجري على الألسنة والجوارح وما ترصده الأسماع وتبصره الأنظار!!

وحينما أقرأ أن الخليفة المنصور أراد أن يحمل الناس على العمل بما في الموطأ دون سواه، لم يتردد الإمام مالك لحظة في رفض هذا الأمر والتحفظ عليه، وقال قولته المشهورة: «لا تفعل يا أمير المؤمنين؛ فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوا شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم..»؛[3] سألت نفسي: أي عقل بديع بريع هذا الذي يفكر به الإمام مالك؟! وأي خلق رفيع هذا الذي جعله يربأ بنفسه عما يفعله بعض الغلاة بفتنتهم العباد في زماننا العجيب هذا؟!

وحينما أقف على قول يونس الصدفي: «ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة؟»؛[4] قلت: أي نفس زكية هذه التي يحملها الإمام الشافعي بين جنبيه؟! فما لبثت أن جاءني الجواب منه في قوله:

علـــي ثياب لو يباع جميعها بفلس لكان الفلس منهـــن أكثرا

وفيهـن نفس لو يقاس ببعضها نفـوس الورى كانت أجل وأكبرا

(3) ابن عساكر، كشف المغطى في فضل الموطا، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر العمروي، دار الفكر. بيروت، 26/1.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 16/10.

وحينما أقرأ في ترجمة الإمام ابن قدامه أنه كان لا يناظر أحداً إلا وهو مبتسم، أتعجب من هذا الأمر وأسأل نفسي: كيف يستطيع هذا العَلم أن يبتسم في نقاشاته وحواراته مع أن ما جاء به من علم -خاصة في كتابه المغني- زاد من فتح باب الخلاف الفقهي على مصرعيه؟!

لقد أتعبت نفسي مرارا في فهم مكنون السر الذي أورده الإمام السيوطي في جزيل مواهبه، المشار إليه سابقا، حين أكد على أن اختلاف المذاهب في ملة الإسلام نعمة كبيرة وفضيلة عظيمة، وله «سرّ لطيف» أدركه العالمون وعمي عنه الجاهلون.

وقلت في نفسي:كيف أمكن لبعض المتطرفين الذين يحسبون على أهل العلم زورا وبهتانا أن يفوتهم هذا السر اللطيف؟!

وحينما قلبت الجواب على جل جوانبه لم أجد لهؤلاء عذرا إلا في تشبيههم بصانع الذهب وثاقب اللؤلؤ، كلاهما ينظم ما لا يملك، ويتصرف فيما لا شأن له فيه..!!

ولو كان هؤلاء من أهل العلم المتخلقين بأخلاقه حقا وصدقا لابتغوا إلى هذا السر اللطيف سبيلا، ولكانوا على نفس منوال علماء الجيل الفريد من الصحابة الكرام، الذين اختلفوا بحب ووفاء، وتحاوروا بطهر ونقاء، وتناظروا بصدق وصفاء، تناسب في ذلك العلم والخلق الرفيع تناسبا جماليا أخاذا، شأن ذلك ما وقع بين عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، وقد تجاوز الإختلاف العلمي بينهما ما يقارب مائة مسألة كما ذكر ذلك بعض أهل العلم، فيأتي ابن مسعود رجلان، أحدهما قرأ على عمر والآخر قرأ على صحابي آخر، فيقول الذي قرأ على

عمر: أقرأنيها عمر بن الخطاب، فيجهش ابن مسعود بالبكاء حتى يبل الحصى بدموعه ويقول: اقرأ كما أقرأك عمر؛ فإنه كان للإسلام حصنا حصينا، يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه، فلما أصيب عمر اِنْثَلَمَ الحصن فخرج الناس من الإسلام.[1]

إن عقلية التطرف في أمس الحاجة إلى إعادة النظر في قيم الاِختلاف والاِئتلاف والتناظر والحوار كما هي عند علماء الأمة الأفذاذ، فهم حملة ميراث النبوة، ولا يستطيع أيا كان منهم أن يدعي أنه حاز هذا الميراث كله وحده وانفرد به، أو أنه قادر على حصره والإحاطة به، فهو يسعه ويسع غيره في كل زمان ومكان.

إن ميراث النبوة نور، وكل من أخذ منه أخذ بحظ وافر من الاِنتساب إلى عالَم الأنوار. وإن الأنوار تختلف اختلافات متنوعة، لكنها لا تتزاحم، بل إن اختلافها التنوعي هذا يزيد القضية المختلف فيها وضوحا وبيانا وفسرا وجمالا ونورا على نور.

(1) اُنظر: الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، تقديم: إحسان عباس، دار الآفاق الجديدة. بيروت، 160/4.

المبحث الرابع. كلية الوسطية والاِقتصاد:

علاقة الوسطية والاِقتصاد بالتطرف هي في عمقها تعبير عن فكر مسربخ وفهم متربّج لهذه الكلية الدينية الرفيعة، حيث أريد لها في أدبيات الغلو والتنطع أن تسربل بسربال المعيار والمقياس المخرج من الملة.

وبيان ذلك أن فئة من المنتحلين المسرفين حملت قول الله جل وعزّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[سورة البقرة: 143] على محمل الإقصاء للرسالات السماوية الأخرى، وذاك على اعتبار أن الأمة الإسلامية هي أمة الوسط، وغيرها من الأمم الأخرى على طرفي الإفراط والتفريط والزيغ والهلاك، وما يستتبع ذلك كله من أحكام التكفير والتضليل والاِنحراف والعماية والغواية!

وقد فات هذا الفكر المتطرف أن الوسطية كلية أساسية من كليات الدين الإسلامي، لها تعريفات متعددة منها: الاِعتدال والقصد والعدل، والتوسط بين الإفراط والتفريط، والخيار والحسب والرفعة، والاِستقامة على المنهج السوي، والتوازن بين طرفين مختلفين، والمنهج الأقوم؛ إلى غير ذلك من المعاني الاصطلاحية مما لا يتسع المجال لعرضها في هذا البحث المقتضب، والتي هي أقرب إلى المعنى المجازي «للوسطية» منه إلى معناها المعياري.

وإذا أردنا أن نُجمّع ما تفرق في معاجم اللغة قلنا: إن الوسطية في التصور الإسلامي تتجاوز هذه المعاني السابقة وتسمو عليها سموا كبيرا، وذلك أن قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا﴾ [سورة

البقرة: 143] هو الشاهد عندنا في هذا المعنى؛ فليس القصد فقط في الآية الكريمة أن الأمة الإسلامية أمة عدل بين ظلمين، أو أمة توسط بين إفراطين، أو أمة استقامة بين اعوجاجين، أو أمة اعتدال بين تطرفين، أو ما شابه ذلك من هذه المعاني المحمودة شرعا وعرفا وعقلا، بل إن الوسطية تحمل معنى أعمق وأكبروأوسع وأشمل من هذه المعاني كلها: إنه معنى الشهادة على الناس كما جاء في سياق الآية نفسها. وهذا المعنى هو الذي أكسب الأمة الإسلامية صفة الخيرية التي وصفها بها رب العالمين في كتابه العزيز: خيرية في عقيدتها، وخيرية في عبادتها، وخيرية في معاملاتها، وخيرية في نورها الذي يسبق أحكامها، وخيرية في روحها التي تسبق تشريعاتها.

إن هذه الخيرية مفعمة بمعاني التميز الذي يجعل من الأمة الإسلامية أمة الأسوة والنموذج والمثال والقدوة، فهي لا تقف موقف الوسط بين رهبانية أمة وغلو أخرى، بل هي الأمة التي تعبرعن صفاء الدين وجمالية التدين؛ ولا تقف موقف الوسط في العدل بين الأمم، بل هي التي تقيم فيهم موازين القسط وتشيع فيهم قيم العدالة؛ ثم إنها لا تقف موقف الوسط بين إفراط أمم وتفريط أخرى، بل هي التي تعلمهم منهج الفطرة الرباني الذي يعصمهم من الزلل والإنحراف عن جادة الإستقامة. ثم بعد هذا كله لا تقف موقف الوسط في التوازن بين موقفين لأمتين مختلفين، بل هي أمة التوازن عينه.

إن وسطية الأمة لا يأخذ معناه المعياري في التصور الإسلامي بشكل واضح وجلي إلا إذا اقترن بوظيفة الشهادة على الناس؛ أوبتعبيرآخر: إن

الأمة الإسلامية ليست أمة الوسط والتوسط بين الأمم على شكل نقطة هندسية تفصل بين قطبين، بل هي أمة متميزة بخصوصيات متعددة تنفرد بها لتجعل منها صاحبة الشهود الحضاري بامتياز، وهي بذلك لا تقصي أية أمة من الأمم الأخرى بأن تحذو حذوها أو تسير سيرها أو تتخذ لنفسها مسلكا تحقق به وجودها وماهيتها.

إن كل فرد مؤمن بدور أمته الحضاري يتحمل مسؤولية كبيرة في إدراك طبيعة هذا الدور الريادي لوسطية الأمة ومواقع العمل فيه والإمكانات الضرورية لهذا الغرض، فعليه المعول لتهيئة المنطلقات السليمة والوسائل المناسبة للإقلاع الحضاري، وهو المطالب بتجلية الرؤية أمام أبناء الأمة وأجيالها وحملهم على تجديد المعارف والأفكار والمفاهيم، وترجمة التصورات والنظريات، وتوجيه العمل نحو استشراف المستقبل والإعداد له.

المبحث الخامس. كلية المقاصد والمراصد:

تعتبر هذه الكلية حجر الزاوية في الكليات الدينية برمتها، وما ذلك إلا لأنها البوابة الأساسية المفضية إلى تحقيق مكارم الشريعة الإسلامية. وهذا ما يفسر أن الاِهتمام بمقاصد وحكم الشريعة الإسلامية في تاريخ الفكر الإسلامي يشكل في عمقه المنهجي مشروع إحياء للأمة وإنقاذ لمقدراتها العلمية والمعرفية في كل مرة تشرف شمس شهودها الحضاري على الأفول من جهة، وفيه جواب عن الأسئلة المقلقة التي تحير الألباب من جهة أخرى.

وهذا ما دفع بالعديد من علماء الأمة إلى الإسهام في فتح باب واسع لفهم الشريعة وفقهها والتطلع إلى جواهرها وأسرارها وحكمها، وأسسوا بذاك منهجا علميا للتعامل مع مقاصدها وغاياتها، فكانت بذلك إشارة علنية واضحة لبداية الاِجتهاد ونهاية التقليد. ثم استقر الوعي المنهجي بعد ذلك بضرورة تجديد العقل المقاصدي وإحياء دوره الاِجتهادي في مواكبته لتحقيق مصالح الناس فترة بعد فترة حتى عصرنا هذا، بل أضحى من الشروط الأساسية التي ينادي بها الفكر الإسلامي اليوم لإخراج المسلمين مما هم فيه من أزمة حضارية مستعصية، خاصة ما تعلق بخطاب التطرف والغلو الذي لا حظ له من الفهم المقاصدي.

ولهذا نفهم لماذا كتب إمام الحرمين الجويني كتابه «غياث الأمم في التياث الظلم»، خاصة بعد توالي الحملات الصليبية على الأمة الإسلامية. ونفهم كذلك لماذا كتب الإمام الشاطبي كتاب «الموافقات» وكتاب «الاِعتصام»، إذ قد كتب ما كتب في ظروف تحمل مؤشرات نهاية

الوجود الإسلامي في غرناطة. وهذا يعني أن هناك بعض التشابه بين عصر الجويني وعصر الشاطبي، وهو الذي مكن لظهور نظرية المقاصد وجوهرها وماهيتها المدافعة بين المصلحة والمفسدة لحفظ الدين، وما يتبع ذلك كله من حفظٍ للبلاد والعباد.

وإن شئنا قلنا إن الاِهتمام بالمقاصد الشرعية أتى في سياق تقييم تاريخي ومراجعة علمية شاملة لحال الأمة، فهو المنهج السليم المحدد لمداخل الإصابات التي أنهكت الأمة، وعليه المعول لكشف الداء ووصف الدواء.

إلا أنه بعد عصر الإمام الشاطبي أغفل المسلمون هذا التصور المعرفي النموذجي حتى فقدت العلوم الإسلامية روحها الشرعية وأفرغت من إكسير حياتها، مما أدى بها إلى الجفاء والجمود وفقدان التأثير والفعالية، حتى نبتت في الأمة نابتة متطرفة تشربت ما تشربته من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وهذا ما دفع الحركة الإصلاحية في تاريخ الفكر الإسلامي الحديث إلى التصدي لهذه الظاهرة الشاذة.

ومن هنا نفهم أنه في سنة 1884م التقى محمد عبده بمجموعة من العلماء المصلحين، وحث بعض طلبته من أمثال عبد الله دراز ومحمد الخضري على الاِعتناء بموافقات الشاطبي. ثم التقى سنة 1903م بالشيخ الطاهر ابن عاشور، فكانت الدعوة لاستئناف البحث المقاصدي الذي يتسق وفعالية الحركة الإصلاحية التي تدافع الحركة الإفسادية في شتى المجالات.

وإن أمتنا -في ظل ما تعرفه اليوم من أوهاق وأثقال فكر الغلو والتنطع- لهي أحوج ما تكون في تحليلها ودراستها إلى تفعيل كلية المقاصد لتحقيق مكارم الشريعة وفهم مقاصدها بما يتحقق به تحصيل مصالح البلاد والعباد وتكميلها، ودفع مفاسد المتنطعين والمتطرفين وتعطيلها.

والحديث عن المصالح والمفاسد في هذا السياق المقاصدي هو عين الحديث عن قيمتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما تشكلانه من تعبير وضّاح وصادق عن تجلية محاسن الإسلام ومناقبه، وهما بذلك تؤطران مهمة الإستخلاف التي أنيطت بالإنسان حتى لا يَضلّ أو يُضلّ، أو يَزلّ أو يُزلّ، أو يَظلم أو يُظلم، أو يَجهل أو يُجهلَ عليه، ولله در الإمام الزركشي في قوله: «فإن قلت: إذا كانت كل شريعة اِنبنت على مصالح الخلق إذ ذاك فبماذا اختصت شريعتنا حتى صارت أفضل الشرائع وأتمها؟ قلت : بخصائص عديدة، منها : نسبتها إلى رسولها وهو أفضل الرسل. ومنها: نسبتها إلى كتابها وهو أفضل الكتب. ومنها استجماعها لمهمات المصالح وتتماتها. ولعل الشرائع قبلها إنما انبنت على المهمات وهذه جمعت المهمات والتتمات، ولهذا قال عليه السلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» «ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا -إلى قوله- فكنت أنا تلك اللبنة»، يريد عليه السلام أن الله -عزوجل- أجرى على يده وصف الكمال ونكتة التمام، ويلزم من حصول نكتة الكمال حصول ما قبلها من الأصل دون العكس».[1]

(1) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر. بيروت، طبعة 1420هـ، 4/111. 112.

المبحث السادس. كلية التجاور والتعايش:

يعلم الجميع تلكم المكانة السامية التي بوأها الإسلام للجوار بشتى أنواعه وأشكاله، إلا أن مما نراه عند البعض من أبنائنا في مجتمعاتنا أو في بلاد المهجر من العتو والغلو في سلوكاتهم العجيبة وتصرفاتهم الغريبة تجاه جيرانهم، كل هذا وغيره يزيد من إعاقة التعايش وزيادة حالة الحنق الإجتماعي، وما يمكن أن يترتب عن ذلك من مساوئ وقتية وخيمة، الأمر الذي يحملنا على ضرورة إعادة التذكير بأهمية هذه الكلية الدينية ومقاصدها السنية.

فالجدير بالذكر أن حقوق الجار في الإسلام حقوق ربانية المصدر، تمثلها الرسول الكريم ﷺ في أحسن صورها عملا بأمر الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ اَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [النساء: 36].

وقد قال الإمام الطبري في تفسيره «للجار الجنب» الوارد في الآية معنى الجنب في هذا الموضع: «الغريب البعيد، مسلماً كان أو مشركاً، يهودياً كان أو نصرانياً؛ لما بينا قبل أن الجار ذي القربى: هو الجار ذو القرابة والرحم، والواجب أن يكون الجار ذو الجنابة الجار البعيد، ليكون ذلك وصية بجميع أصناف الجيران، قريبهم وبعيدهم».[1]

(1) الطبري، جامع البيان، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر بإشراف الأستاذ عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط.1، 1422هـ.2001م، 10/7 - 11.

وحين أورد الإمام القرطبي في معرض تفسيره لهذه الآية كيفية الإحسان إلى الجار، أضاف قائلا: «وعلى هذا فالوصاة (الوصية) بالجار مأمور بها مندوب إليها، مسلمًا كان أو كافرًا، وهو الصحيح. والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة، وكف الأذى، والمحاماة دونه. روى البخاريّ عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال: «ما زال جبريلُ يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه». وروي عن أبي شريح أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن» قيل: يا رسول الله ومن ؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»، وهذا عام في كل جار».[2]

أما الإمام الجصاص فقال في الآية نفسها: «والإحسان الذي ذكره الله تعالى يكون من وجوه: منها المواساة للفقير منهم إذا خاف عليه الضرر الشديد من جهة الجوع والعري. ومنها حسن العشرة، وكفّ الأذى عنه، والمحاماة دونه ممن يحاول ظلمه، وما يتبع ذلك من مكارم الأخلاق وجميل الفعال».[3]

وبناء على هذا فالوصية الربانية بالجار واضحة المعالم في كتاب الله الحكيم، سواء كان هذا الجار مسلما أو كافرا. والإحسان إليه بشتى المعاني لا ينكره عاقل. ولكن فئة من شباب المسلمين ومن معهم من «المراجع الشرعية» التي يعولون عليها في الإفتاء فيما يدعونه من «جهالة» أو «نجاسة» جيرانهم، خاصة إذا نظروا إلى هذا الأمر من زاوية

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية. القاهرة، ط.2، 1384هـ. 1964م، 184/5.

(3) أبو بكر الرازي الجصاص، أحكام القرآن، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي. بيروت، طبعة 1405هـ، 158/3.

ضيقة مليئة بالاختلافات الإجتهادية التي أُخرجت عن سياقاتها المعرفية وحُمّلت في محامل بعيدة عن التصور الإسلامي الحضاري المتميز للجوار والمجاورة، خاصة فيما يتعلق بالجوار غير المسلم..!!

ولو أمعنت هذه الفئة من المتنطعين النظر قليلا في جوهر الدين الإسلامي ومقاصده، وتدبرت تاريخ الفكر الإسلامي منذ صدر الإسلام، لعلمت كيف سعى ديننا الحنيف إلى توطيد علاقة الجوار بين المسلم وجاره غير المسلم، وذلك بدءًا من تحريم الإعتداء عليه وعلى ممتلكاته، وانتهاءً بأبسط حقوق الجوار المتمثلة في جواز ابتداء أهل الكتاب بتحية الإسلام، حيث ذهب جمهور أهل العلم إلى وجوب رد السلام عليهم، ثم إذا عطسوا يجوز تشميتهم، وإذا مرضوا تحمد عيادتهم.. إلى غير ذلك من أخلاق الجوار المعروفة في أحوال المسلمين.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد في هذه العلاقة، بل إن بعض علماء الإسلام قالوا بأن فضل أهل الكتاب وسؤرهم طاهر ، وبذلك جاز الوضوء به، وهو أحد أقوال الحنفية والظاهرية. وذهب آخرون إلى جواز الصلاة في البيعة والكنيسة إذا كانتا نظيفتين وخاليتين من الصور، وهو قول للمالكية والحنابلة والظاهرية.

أما إجابة الدعوات وتبادل الهدايا بين المسلم وجاره الكتابي فهو مما شاع عمله في تاريخ المجتمعات الإسلامية؛ لأن المسلم كان دائما خير جار لجاره أيا كان دينه ومعتقده، ولهذا استأمنه على كثير من أموره حتى بلغ الأمر حد استئجاره في بناء المسجد، ثم إنه وقف الوقف عليه، ورضي

بحضانة مطلقته الكتابية لولده ما دام صغيرا وما لم تتزوج، والتي قد يكون عقد عليها من قبل بشهادة عدول من أهلها الكتابيين.

ويستمر هذا التجاور الحضاري بين المسلم وجاره إلى آخر لحظات العمر، فلا يتوقف هذا السلوك الإسلامي الرفيع في التعبير عن جمالية الرسالة المحمدية في أبهى صورها، وهذا واضح من قيامه ﷺ حين مرت به جنازة اليهودي تقديرا واحتراما للنفس البشرية التي برأها رب البرية. ففي الحديث الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: مرت بنا جنازة فقام لها ﷺ وقمنا به، فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، قال: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا». وفي رواية أخرى: «إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفساً».[1]

(1) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: من قام لجنازة يهودي، 85/2.

المبحث السابع. كلية الوطنية والمواطنة:

الوطنية والمواطنة سنة سرمدية لله في خلقه، وهي إحساس فطري عجيب، وعاطفة إنسانية قوية تحمل المواطن على حب الوطن والقيام بواجباته تجاهه بعفوية وصدق وإخلاص، ومن هنا اعتبرت كلية دينية تترجم لطبيعة وقوة الإرتباط بين الإنسان وموطنه الأصلي، ولو كان كمفحص قطاة !

وإن في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الكثير من الأدلة والشواهد التي تؤصل لهذه الكلية، ولكن ما يؤسف له أن بعض الأفكار المتطرفة التي اجتالت عددا من أبناء الأمة لا تقيم للوطن أي اعتبار، حتى بلغ الأمر حد إفسادهم فيه تفسيقا وتبديعا وتكفيرا وتفجيرا ! وبذلك وجب التذكير بما اختص به ديننا الحنيف في هذا الصدد من قاصية المقاصد وناصية المراصد.

فبرجوعنا إلى كتاب ربنا الحكيم، نجد عددا من الآيات الكريمة التي خلدت لقيمة الوطن ومكانته في نفس الإنسان، واتخذت من رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام الأنموذج والمثال للتعبير عن الوشيجة المتصلة والمشتبكة بينه وبين وطنه، فكان أنموذجا للمواطن المتمثل لمواطَنته حقّا وصدقا وعدلا.

ومن الأدلة على هذا قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: 85]، حيث ذكر عدد من المفسرين، كالإمام الطبري والإمام ابن كثيروغيرهما، أن المقصود بالخطاب الموجه

إلى نبينا الكريم «لرادك إلى معاد»، أي لرادك إلى موطنك الأصلي مكة كما أخرجوك منها.

وقد قال الإمام البغوي في هذا السياق: «﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إلى مكة، وهو رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول مجاهد. قال القتيبي: معاد الرجل: بلده، لأنه ينصرف ثم يعود إلى بلده، وذلك أن النبي ﷺ لما خرج من الغار مهاجرا إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب، فلما أمن ورجع إلى الطريق نزل الجحفة بين مكة والمدينة، وعرف الطريق إلى مكة اشتاق إليها، فأتاه جبريل عليه السلام وقال: أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: نعم، قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، وهذه الآية نزلت بالجحفة، ليست بمكية ولا مدنية»[1].

ومما ورد كذلك في هذا الصدد قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء:66]. والشاهد في الآية الكريمة ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾، ففيه من الشدة والمشقة والكلفة ما لا يقل في وقعه على الإنسان من قتله لنفسه، لأن الأمر مرتبط بالخروج من الأوطان ومفارقتها.

وقد قال الإمام السعدي في معرض تفسيره لهذه الآية: (يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس، من قتل النفوس

(1) الإمام البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي. بيروت، ط.1، 1420هـ، 548/3.

والخروج من الديار، لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات لتخف عليه العبادات، ويزداد حمدًا وشكرًا لربه».[1]

أما السيرة النبوية الشريفة فحافلة بالعديد من المواقف المعبرة بجلاء وصفاء عن محبة الأوطان والتعلق بها صبابة وشغفا ووجدا.

فقد أورد الإمام البخاري في بداية جامعه الصحيح قصة بداية نزول الوحي على رسول الله ﷺ وذهابه مع خديجة رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل الذي أخبره أن قومه مخرجوه، فقال عليه الصلاة والسلام: «أوَ مخرجي هُمْ؟».[2] وهذا استفهام تعجبي إنكاري على وجه التفجّع والتوجّع، فيه إشارة واضحة إلى أن أمر الإخراج من الوطن شق كثيرا على الرسول الكريم، لذلك استغرب هذا السلوك الفج المخالف لأبسط حقوق الإنسان..!

وهكذا وقف النبي عليه الصلاة والسلام مخاطبا مكة يودعها حين كان مهاجرا إلى المدينة فقال: «ما أطيبكِ من بلد وأحبَّكِ إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيركِ».[3]

(1) الإمام السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1420هـ.2000م، 185/1.

(2) صحيح البخاري، باب: بدء الوحي،7/1.

(3) سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب: في فضل مكة، 723/5. الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وعدد من المحققين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي . مصر، ط.2، 1395 هـ.1975م.

ومما صح عنه كذلك عليه الصلاة والسلام ما أورده البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر فأبصر جُدُرَاتِ المدينة أَوْضَع راحلته، وإن كان على دابة حركها من حبها».[4] وفي هذا قال الإمام ابن حجر: «وفي الحديث دلالة على فضل المدينة وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه».[5]

وحين هاجر الصحابة الكرام . رضي الله عنهم . إلى المدينة أصابتهم الحمى واشتدت عليهم لعدم إلفهم بها، فدعا ﷺ دعاءه المشهور: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد..».[6]

ومما صح في الرقية الشرعية أن الرسول الكريم، عليه أفضل الصلاة والسلام، كان إذا أراد أن يرقي مريضاً بلَّ أُصبعه الشريف بريقه، ثم وضعه على التراب، ثم مسح به المريض وقال: «بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يُشفى سقيمنا بإذن ربنا».[7]

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كتب الرسول ﷺ الوثيقة المشهورة التي تعبر عن الوطنية والمواطنة أصدق تعبير، وجعل من حب الوطن واحترامه والدفاع عنه بنودا أساسية سجلها التاريخ بمداد الفخر والإعتزاز.

---

(4) صحيح البخاري، باب: المدينة تنفي الخبث، 22/3.

(5) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري. رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، علّق عليه العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة . بيروت، 1379هـ، 621/3.

(6) صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب: من دعا برفع الوباء والحمى، 122/7.

(7) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب: رقية النبي ﷺ، 133/7.

ورغم أن المدينة المنورة أصبحت موطنا للرسول الكريم ﷺ، فقد ظل يحن إلى مكة ويسأل عنها. وهكذا حين قدم أصيل الغفاري بادره الحبيب المصطفى سائلا: «**يا أصيل، كيف عهدت مكة؟ فقال: عهدتها والله قد أخصب جنابها، وابيضت بطحاؤها، وأغذق إِذخِرها، وأُسْلِتَ ثُمَامُها، وأَمَشَّ سَلَمُها. فقال: حسبك يا أصيل، لا تُحْزِنَّا**».[1]

وإذا كان رسولنا الكريم . عليه أفضل الصلاة والسلام . يقول هذا الكلام تعبيرا عن عمق إحساسه بصدق وطنيته وحبه لوطنه ووفائه له، فماذا عسانا نقول اليوم لمن رأى النور في وطنه وتنفس هواءه وشرب ماءه وقضى فيه طفولته ثم يسعى فيه خرابا وفسادا بتنطعه الفكري وغلوه الديني، وهذا من أقبح أنواع السعي بالفساد في الأرض..!! ولله در الشاعر حين قال:

ولي وطـن آلـيـت ألا أبيعـه ... وألا أرى غيري له الدهر مالـكاً
عهدت به شرخ الشباب ونعمـه ... كنعمة قوم أصبحوا في ظلالـكا
وقد ألفته النفس حتى كـأنـه ... لها جسد إن غاب غودرت هالكاً
وحبب أوطـان الرجـال إليهـم ... مآربُ قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطـانهم ذكـرتهـم ... عهود الصبا فيها فحنوا لـذالـكا

(1) عز الدين ابن الأثير، أسد الغابة، دار الفكر . بيروت، طبعة 1409هـ. 1989م، 121/1.

خاتمة:

إن ظاهرة التطرف الديني الذي ابتليت به أمتنا في عصرنا الحالي تشكل تحديا حضاريا حقيقيا للإسلام وللمسلمين، وليس من سبيل لمواجهتها والقضاء عليها إلا من خلال رؤى علمية مؤطرة ومقاربات معرفية ممنهجة.

ومن هنا يتضح الدور المركزي للعلماء والباحثين -أفرادا وهيئات ومؤسسات- في الإسهام الفعال في تدبيج صياغة مقدمة التغيير المنشود للأمة الإسلامية، فهم الرواد الحداة الذين يمسكون بزمام القافلة، ويمشون أمامها تيسيرا للقيام بدورها في النهضة والتنمية والعمران.

فصفوة الأنام من أهل العلم هم الذين في مُكْنتهم تفكيك خطاب التطرف وبناء الرؤية الإسلامية في هذا السياق على أسس سليمة، وتقديم هذه الحصيلة إلى الأمة ومؤسساتها لكي تتبناها وتضعها محتوى لفكرها ودليل عمل لجهود مسيرتها وبنائها المستقبلي.

وإن هذه الندوة العلمية المباركة، التي جمعت بين الرابطة المحمدية للعلماء بالمملكة المغربية والهيئة العالمية للعلماء المسلمين بالمملكة العربية السعودية، تعتبر بحق لبنة علمية في صرح البناء الحضاري المتين للأمة، والذي من شأنه أن يعيد للتصور الإسلامي أصالته ونصاعته وخيريته وشهوده وجماليته ونورانيته، وبذلك تستطيع تخطي الفرطات والعثرات جراء انحراف في الفكر أو عتمة في الرؤية.

المحتويات

مقدمة 05
المبحث الأول. كلية التزكية والسلوك 07
المبحث الثاني. كلية الإفتاء والاستفتاء 11
المبحث الثالث. كلية الإختلاف والإئتلاف 17
المبحث الرابع. كلية الوسطية والإقتصاد 24
المبحث الخامس. كلية المقاصد والمراصد 27
المبحث السادس. كلية التجاور والتعايش 30
المبحث السابع. كلية الوطنية والمواطنة 34
خاتمة 39